



أبْتَتْ شهور طويلة من التعامل مع خطٍّ لإنهاء الصراع في سوريا تماسك محور روسيا - إيران - نظام بشار الأسد، وتمسّكه بشروطه للحل السياسي من جهة، وامتلاكه بدلاً هو الحل العسكري من جهة أخرى، مستنداً إلى احتلال ميزان القوى لمصلحته، وبالتالي عدم اكتراشه بالكلفة البشرية والاقتصادية والعمانية. وفيما يشاطره المحور الآخر عدم الاكتراش هذا، فإنه يكاد يقتصر على الولايات المتحدة، وحدها عملياً، وهي متخبطة ومُربِّكة، سواء بخياراتها ومصالحها أو بتناقضات لا حصر لها مع حلفاء وأصدقاء، يشعرون أحياناً كثيرة بأنها متوافطة مع روسيا أو مع إيران ومع النظام، والأسوأ أنها كلما لوحَتْ وتلَوَّحَ بتنازلات للحصول على «صفقة/ اتفاق» تجد أن موسكو تأخذ تلك التنازلات على أنها مكاسب ولا تلبث أن تخدعها فلا تعطي شيئاً في المقابل.

مرد ذلك إلى أن «الدب الروسي» مدرك أنه يتساوم في سوريا مع «أميركا بلا أسنان»، وما دامت كذلك فهي في نظره رهانٌ خاسرٌ لمن يعولون عليها ولا يحق لها أن تحصل على شيء، لكنها أميركا مختلفة في مكان آخر: أوروبا.

لم يكن مُستغرباً، إذًا، أن يخفق التنسيق والتعاون بين موسكو وواشنطن، ويبدو تشدّد حلف الأطلسي في ملفين (روسيا والإرهاب) وعزمه على تعزيز وجوده العسكري في شرق أوروبا بمثابة تفسير لهذا الإخفاق. ذلك أن شروط الروس لقتال مشترك ضد تنظيمي «داعش» و«جبهة النصرة» (بعد فصلٍ غير واقعي للمعارضة «المعتدلة» عنها)، كذلك شروطهم للحل السياسي، رُسِّمت بهدف التعجيز والضغط على الأميركيين كي يخفّفوا ضغوطهم الأطلسية.

وعلى رغم أن الطرفين يبديان ارتياحاً إلى المعادلة القائمة، إلا أنهما يخوضان صراعاً حاداً يركّز فيه «الناتو» وأميركا على استكمال منظومة الدفاع الأوروبي، أما فلاديمير بوتين فيعتبر أنه كسب أوراقاً مهمة في أوكرانيا وفرض أمراً واقعاً (تقسيمياً) لا يمكن تغييره إلا بالقوّة.

لكن ما يربّه بوتين في سوريا لم يساعده على التخلص من الكلفة الباهظة للعقوبات الأميركيه والأوروبية ولم يمكّنه بعد من إلقاء خصومة، فالأتلسي وأميركا لا يمانعان اشغاله في الساحة السورية التي لا يريدان دخولها.

وفي تقديرهما أن روسيا محكومة بثلاثة محددات: لا تستطيع إنهاء هذه الأزمة وحدها أو مع النظامين الإيراني والسوسي، ولا

تستطيع فرض حلٍ بشروطها وحدها فهي تحتاج إلى «الشريك» الأميركي، ولا تستطيع إجراء مقاييس بين أوكرانيا وسوريا حتى لو قدمت تنازلات جوهرية.

لكن حتى أميركا – أوباما لا تعمل لتخسر في سوريا، وإن لم تكن لديها المقومات ولا السياسات المساعدة لtribe. وإذا كانت ترفض الإنضواء في سياسة تقوتها روسيا، بل تصر على المشاركة في القيادة، إلا أنها اختارت للعمل العسكري على الأرض طرقاً خاطئة أو ملتبسة حدّت من جدوى لعبها السياسي على الطاولة. وفي الأساس، لو لم تكن هناك معارضة مقاتلة لما استطاعت أميركا حتى أن تكون طرفاً في المساومة، لكنها فشلت دائماً، حتى عندما كانت تحسن تشخيص الأخطار، في اتخاذ القرارات المناسبة.

إذ لم يعد أحد يصدق أنها تساند أي معارضة للنظام، منذ البداية كانت لديها مشكلة في مناصرة الشعب السوري، على رغم الادعاءات المعاكسة. لم تدعم حماية سلميتها ثم استاءت من عسكرة ثورته، ثم فرّطت بالفرصة التي شكلّها «الجيش الحرّ»، فلم تساعده على الصمود ليكون سندأً لـ أي حل سياسي، ولم تشاً الاعتماد عليه في صدّ اختراقات المجموعات الإرهابية أو في محاربة تنظيم «داعش». لذلك ساهم غموضها وترددتها وتقلّبها أولاً في تشظي هذا الجيش إلى فصائل، وثانياً في تقوية حجة روسيا، إذ تبنّت ادعاء نظام الأسد بأن كل من يحاربونه «إرهابيون» بل قاربت دخول اتفاقيات تبيح لروسيا وحلفائها تصفية المعارضة.

كانت المراهنة الأميركيّة على تعاون مع روسيا مفهومه في بعض المراحل، خصوصاً أن الطرفين أكدا دائماً أن «لا حلّ عسكرياً» في سوريا.

أما عدم المراهنة الأميركيّة على الشعب السوري فكان ولا يزال خطأً فادحاً أمكن واشنطون أن تلمسه على أرض الواقع، لكنها اكتفت برؤية الواقع الآخر الذي يمثله «داعش» وتمسّكت به باعتباره ذريعة وجودها في شمال سوريا، كما أنه أتاح لها استبانت قوة بريّة تستخدمها في محاربة الإرهاب. وعلى رغم أن واسنطون تعرف أن الاعتماد على الأكراد يراكم مشكلة إضافية إلى تعقيدات الوضع السوري، إلا أنها أصرّت عليه، بل تجاهلت وأفشلته عمداً كل مشاريعها لتدريب وتجهيز عناصر من «الجيش الحرّ»، مفضّلة ضمّ مجموعات وصفتها بـ «العربية» إلى الوحدات الكردية، من قبيل التعميم وليس الجدية في محاربة الإرهاب.

لكن موسكو عرّضت واسنطون لاختبارات عدة مخيّبة:

إذ اتخذت أولاً من علاقة نظام الأسد مع الوحدات الكردية وسيلة للانفتاح عليها واحتراقتها والتدخل في عملياتها ضد «داعش»، فضلاً عن إبداء الدعم لها في طموحاتها القومية، ما أدى إلى مفاجمة تهميش العنصر «العربي» في «قوات سوريا الديمقراطية».

ثم إن موسكو استغلّت، ثانياً، تلّؤ الأميركيين في التنسيق العسكري فأغاررت مقاتلاتها على موقع التف وآبادت عملياً فرقة استحوذت عليه فجأة، وأعلن أنها تسمّي «قوات سوريا الجديدة» المشكلة من عسكريين منشقين أحضروا لتدريبات أميركية – بريطانية.

كما تمكّنت موسكو، ثالثاً، من اجتذاب إسرائيل إلى خطّها وإظهار انحيازها إلى نظام الأسد، ومن التنسيق مع إسرائيل لاجتذاب تركيا إلى خيارات سورية مختلفة. أخيراً وليس آخرأ، نقضت موسكو تعهّدات سابقة بالنسبة إلى حلب وشرعت، حتى قبل إخفاق التنسيق مع واسنطون، في التغطية الجوية لقوات النظام والميليشيات الإيرانية خلال عملياتها لمحاصرة

يحصر الأميركيون اهتمامهم حالياً بمحاربة «داعش» والإعداد لمعركة الرقة، لكن تجربة منبج تضطرّهم إلى إعادة النظر في خططهم وتفحّص القوات التي تنفذها من دون أن تكون لديهم بدائل. ويبدو الروس والإيرانيون والأسد بأنهم تركوا رقعة «داعش» للأميركيين موقنين بأنها ستعود إليهم في نهاية المطاف. وكما في العراق، كذلك في سوريا، يرفض الأميركيون الاعتراف بحقيقة التلازم الأسري – «الداعشي» والإيراني – «الداعشي»، وعلى رغم أن واشنطن أوحّت في وقت سابق بأنها مدركة أن هذا مثلثٌ متربّط الأضلاع، إلا أنها لم تتوصل في العراق حتى الآن إلى ترجمة إضعاف «داعش» تعزيزاً للدولة العراقية وتحجّماً للهيمنة الإيرانية، بل تتوّاكب هزائم التنظيم مع استفحال نفوذ طهران واستشراسه، ولا مبالغة في توقع النتيجة ذاتها للنظام وحلفائه في سوريا ولن يعني ذلك بطبيعة الحال حفاظاً على الدولة ومؤسساتها.

تبدي فشل الإدارة الأميركيّة الحاليّة في ثلاثة اتجاهات على الأقل: الأول في عجزها عن فرض تصوّرها الأساسي وهو أن تتواءز المرحلة الانتقالية في الحل السياسي مع التركيز على محاربة «داعش». والثاني في مهادنتها الروس والإيرانيين ونظام الأسد، إلى حدّ أتاح لهم تحقيق معظم أهدافهم على حساب المعارضه والدول التي تدعمها. والثالث في كونها صادرت مواقف حلفائها وأصدقائها وقصرت المبادرات على تفاهمها مع الروس، فإذا تعطل التفاهم تتعطل المفاوضات، وإذا تعذر التنسيق كما هي حاله اليوم فإن الشعب السوري هو من يدفع الثمن. وهذا لا يمنع الروس والإيرانيين والأسد من الانفلات والبحث عن «انتصارات»، قبل انتهاء ولاية أوباما، كي يقدمونها على أنها «حاسمة»، وحتى لو استطاعوا الحصول عليها فإنهم لن يتوصّلوا إلى أي حسم ضد الشعب، أو إلى نهاية للصراع على النحو الذي يتّصورونه. قد يتوصّلون إلى تغيير بعض الواقع قبل أن تستخلص الإدارة الأميركيّة المقبّلة خيارات جديدة من ركام العبث الذي خلفه أوباما.